مجلة كلية
الدعوة الإسلامية
مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة

العدد
الخامس عشر
1998

1428 من ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم 1998 أفرنجي

مكانة العلم والعلماء في الإسلام

الدكتور: عبد الله العابد
كلية العلوم والآداب - غريانه

الدكتور: محمد جاسم العبيدي
كلية العلوم والآداب - غريانه

تقديم

أظهرت كتابات المتعصبين من المستشرقين اتهامات للعرب المسلمين بالتخلّف والحطّ من مكانة العلم والعلماء، وسار على دربهم ذلك بعض الغربيين وبعض السطحيين من غيرهم، ومنهم عرب لبسوا ثوب الحضارة الغربية، واعتقدوا أن الفلسفة التعليمية الغربية هي المفتاح الوحيد لبوابة التقدّم.

وفي الوقت الذي نؤمن فيه بوحدة الفكر الإنساني وتخاطب الحضارات، ونأخذ بأسباب العلم والتعليم أياً كان مصدره، فإننا في هذه الورقة نهدف إلى إبراز الدور الريادي والمكانة الرفيعة التي أولاها القرآن الكريم للعلم والعلماء، وكذلك ما أكّدته السنة النبويّة الشريفة وسيرة الخلفاء الراشدين بخصوص قدسية

العلم، والحث على التعلّم واحترام وتقدير العلماء حق قدرهم. فتراث الأمّة العربية الإسلامية يرفع من درجة العقل؛ حيث ازدحمت أسفار التفسير، وجوامع الحديث وكتب الأدَب، ودواوين الشعر بما يترجم عما تكنهُ ضمائر قادة الأمّة وعلمائها وأدبائها وشعرائها وفلاسفتها وحكمائها من إكبار لمكانة العقل والعلم وفضل العلماء والتعليم. ولو اطّلع هؤلاء المستشرقون على التراث الفكري للأمة العربية الإسلامية ومنزلة العلم والعلماء في الإسلام لعرفوا حق المعرفة قيمة وأَهمية العلم والعلماء في كتاب الله وفي الأحاديث الشريفة. ونحن في هذه الدراسة لا ندافع عن العقيدة الإسلامية فهي صرْحٌ شامخ أَنارتْ وتُنير للإنسانية الصورة المشرقة لبناء الإنسان وإعداده وتربيته، وهي قادرة على الدفاع عن نفسها بتأكيد قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾[1].

إلاّ أننا نود إظهار الموقف الإسلامي تجاه العلم والعلماء على حقيقته من خلال عرض الآيات الشريفة والأحاديث النبوية، وسيرة السَّلف الصالح بهدف تعزيز معنويات شبابنا المسلم قبل غيره؛ ليقف ثابت الأقدام في وجه الغزو الثقافي الغربي الذي يستهدف تدمير مقدساتنا بل تدمير وجودنا في حدّ ذاته.

العلم والعلماء ومكانتهما في القرآن والحديث:

تتجلى مكانة العلم في تاريخ الأمة العربية الإسلامية بأبهى صورة في العقيدة الإسلامية، ويؤكد ذلك ما جاء في الآيات القرآنية التي تقدّس العلم وتُظهر أهميته للحياة الدنيوية والدينية، وليس أدلّ على ذلك من وصف الله تبارك وتعالى ذاته في الكتاب الحكيم بالعالم والعليم والعلاّم والأَعْلَم، والذي وسع كل شيء علماً، والذي أحاط بكل شيء علماً، وهو جلّ جلاله الذي آتى الأنبياء حكماً وعلماً، والعلم عند الله تعالى يعلّمه من لدنه ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾[2].

(1) سورة الزمر، الآية: 41.

(2) سورة البقرة، الآية: 255.

وفي سورة العلق ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[3] ومن إجلال الله سبحانه للعلم أن سمّاه بالحكمة، ونعتها بالخير الكثير ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[4] وقد رفع الله من مكانة العلم، حيث ذكر سبحانه أولي العلم بَعْدَ الملائكة: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾[5] وقرنهم بنفسه في سورة الرعد و﴿كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾[6] كما جاء في القرآن المجيد أيضاً تكريم العلماء ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾[7] وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[8] ولعلَّ أجل تكريم للعلم ما جاء في سورة آل عمران ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾[9]. كما جاء كذلك التأكيد الربّاني لأهمية العلم وقوة سلطانه في قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾[10] والمقصود هنا سلطان العلم.

وقد وعد الله تعالى أصحاب العلم بالدرجة الرفيعة ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[11] وقد فرّق سبحانه بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون في سورة الزمر ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[12] وفي سورة أخرى ميَّز الملك طالوت عن غيره بالعلم الذي كان بَديلاً عن المال ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا

(3) سورة العلق، الآية: 1، 4، 5.
(4) سورة البقرة، الآية: 269.
(5) سورة آل عمران، الآية: 18.
(6) سورة الرعد، الآية: 43.
(7) سورة آل عمران، الآية: 7.
(8) سورة الزمر، الآية: 9.
(9) سورة آل عمران، الآية: 17.
(10) سورة الرحمن، الآية: 33.
(11) سورة المجادلة، الآية: 11.
(12) سورة الزمر، الآية: 9.

وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾[13].

وكان العلم أحد الدعائم التي استند عليها يوسف ـ عليه السَّلام ـ في طلب توليته على خزائن الأرض ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[14] ووصف القرآن العلماء بأقرب العباد إلى خشية الله وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا﴾[15].

مكانة العلم والعلماء في الحديث الشريف:

إن منزلة العلم في الحديث الشريف منزلةٌ رفيعة مبجَّلة، فالعلماء ورثة الأنبياء، وهم أَقربُ البشر إلى درجة النُّبوة، فطلب العلم فريضةٌ، ومن أخذه أخذ بحظٍّ وافر من الخير، وإن فضل العالم على العابد كفضل النبي على أدنى رجل من الصَّحابة، وإن الله وملائكته وأَهل السماوات والأرض ليصلُّون على معلِّم العالمين محمّد ﷺ الذي وصف العلماء بأنهم إحدى الفئات الثلاث التي تشفع في غيرها يوم القيامة، ولا خير في عبادةٍ لا علم فيها. وكان النبي ﷺ يأمر الناس بالعلم والتعلّم ويقول: **«اطلبوا العلم ولو بالصين»** والصِّين كانت في ذلك الوقت أبعد البقاع التي وصل إليها المسلمون، وشبَّه النبي ﷺ العلم والهدى الذي أنزله الله بالغيث الذي يصيب الأرض فتهتزّ وتربو وتنبت من كل زوج بهيج، وورد في الأثر أن الله تعالى عالم يحب كل عليم، والعالم خليفة الله في الأرض، وتُظَلِّلُ الملائكة طالب العلم بأجنحتها. ووصف النبي ﷺ العلماء بالخلفاء، مثلهم في الأرض كمثل النجم في السماء يُهْتَدى بنوره في ظلمات البرِّ والبحر، وكرَّم الله عزّ وجل ابن آدم بأن ينقطع بعد موته من كل شيء إلاَّ من ثلاث، ألا وهي الصدقة الجارية والابن البار الذي يدعو لوالده، وعلم يُنتفع به. كما جاء في الحديث أيضاً قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: **«إن الله عزَّ وجلَّ لم يبعثني**

---

(13) سورة البقرة، الآية: 247.

(14) سورة يوسف، الآية: 55.

(15) سورة فاطر، الآية: 28.

معنفاً ولكن بعثني معلّماً ميسراً»[16] وليس أدلّ على أهمية مكانة العلم في السيرة النبوية من وصف الرّسول ﷺ نفسه بالمعلّم.

إن المكانة الرفيعة للعلماء في الإسلام تتضح من وصفهم بورثة الأنبياء **«العلماء ورثة الأنبياء»**[17]، والرّسول محمّد ﷺ أوصى بتبجيل العلماء لأنه من إجلال الله[18].

وقال علي بن أَبي طالب كرّم الله وجهه: «أنا عبد من علّمني حرفاً إن شاء باع وإن شاء استرق»، ثم قال: «من علّمك حرفاً واحداً مما تحتاج إليه في أمر الدين، فهو أبوك في الدين»[19] ويقول الإمام علي ـ رضي الله عنه ـ وهو يخاطب أبا الأسود الدؤلي: «الملوك حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك»[20].

هذا وقد سار الخليفة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ على نهج القرآن والسنّة حيث كان يرسل على رأس كل بعثة من المدينة إلى أي إقليم آخر «الأمير والوزير والمعلم»[21] وذلك تأكيد على سمو مكانة المعلم في الدولة العربية الإسلامية. وها هو الإمام علي ـ رضي الله عنه ـ مرة أخرى يقول: (من حق العالم عليك إذا أتيته أن تُسلّم على القوم عامة وتخصّه بالتحية)[22].

إن للمعلّم في التراث الإسلامي كياناً عظيماً، وإن للتّعليم رباطاً روحانيًا محكما يُمثله النهج القرآني كما تمثّله أحاديثُ الرّسول ﷺ، وآل بيته الميامين،

---

(16) حديث شريف، الإمام أَحمد بن حنبل، مصر، (1313هـ)، ص(321).
(17) صحيح مسلم، صحيح الترمذي، من حديث أَبي الدّرداء.
(18) الطوسي، الأمالي، إسلام أباد، ص196.
(19) الزرنوجي، تاج الدين النعمان بن إبراهيم، تعليم المتعلم، مطبعة الرحمانية، 1921م، القاهرة، ص7.
(20) الإمام الغزالي، إحياء علوم الدين، ج1، ص6.
(21) عبد القادر محمّد، القضايا التربوية في التراث العربي، من بحوث المؤتمر الثاني للتربويين العرب، بغداد، 1978م.
(22) ابن حنيفة، عبد الله بن مسلم، عيون الأخبار، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، 1963، ص120.

يقول علي بن الحسين ـ عليه السَّلام ـ: «تواضعوا لمن تتعلّمون منه» ويقول علي بن أبي طالب (كرّم الله وجهه) لكميل بن زياد اللّخمي: «الناس ثلاثة: معلّم ربّاني، ومتعلّم على سبيل النجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق، يميلون مع كلّ ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، فالعلم خير من المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق، وصَنِيعُ المال يزول بزواله، يا كميل العلم دين يدان به، يُكْسِبُ الإنسان الطاعة في حياته وَجَميل الأحدوثة بعد وفاته، والعلم حاكم والمال محكوم عليه، يا كميل يَهلِكُ خُزَّان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدَّهر، أَعْيَانُهُمْ مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة»[23].

وفي خطاب الإمام زين العابدين وجّهه إلى المتعلمين قال فيه: «وحق أُستاذِك في العلم، التعظيمُ له والتَّوْقِير لمحلِّهِ وحسن الاستماع إليه»[24].

أما مكانة الأستاذ في العصر العباسي فكانت متميّزة سواء على مستوى مجالس الخلفاء أَم من خلال إسنادِ المناصب إليهم أَم ما يُوَفَّر لهم من سعة العيش، فإبّان خلافة هارون الرشيد، ذُكِر أن أحد المعلمين ويُدعى أبا معاوية كان يشارك هارون الرشيد المائدة، وأخذ أمير المؤمنين الإبريق وصبَّ الماء على يديه وهو لا يدري لعاهته، ثم سُئِل عما إذا كان يَعْلَمُ من الذي يَسْكُب الماء على يديه فأجاب بلا، فقيل له: هارون الرشيد، فقال: أحقًّا أنت يا أمير المؤمنين فأجاب بنعم إجلالاً للعلم والعلماء[25]... هذا وتمتد مسيرة تكريم المعلم في أثناء حياته وبعد مماته حيث تحتشد جموع المشيعين عند وفاته، وتقفل الحوانيت وتُعطَّل الأعمال ويَعُمُّ الحزن والحدَاد[26] (ومَوْتُ قبيلة أَيسَر من مَوْت عالم)[27].

---

(23) أمير المؤمنين علي بن أَبي طالب ـ رضي الله عنه ـ، نهج البلاغة، شرح الشيخ محمّد عبده، مطبعة الاستقامة، القاهرة، 1960، ص21.

(24) الطبرسي، مكارم الأخلاق، ص143، منية المريد في آداب المفيد والمستفيد، زين العابدين، بومبي، 1301هـ.

(25) قنبر محمّد، نظم التعليم المقترحة، من بحوث المؤتمر الثاني للتربويين العرب، بغداد، 1978م.

(26) الزرنوجي، تعليم المتعلم، القاهرة، 1935 ص16.

(27) محفوظ حسين، مكانة الأستاذ في التراث، مركز إحياء التراث العلمي العربي، بغداد. ب. ت.

من أمثلة مُجَالسة الحكام للعلماء ما ذُكِر من أن أبا سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي دخل يوماً على هارون الرشيد بعد غياب عنه فسأله: (كيف كنت بعدنا يا أصمعي؟ فأجاب ما لاقتني أرض. فتبسَّمَ الرشيد ولَمَّا انصرف الناس، قال: يا أصمعي ما معنى ذلك. فأجاب ما استقرَّتْ بي أرض، فقال هذا حسن، ولكن لا ينبغي أن تكلِّمني بين يدي الناس إلاَّ بما أفهم، فإذا خلوت فعلمني فإنه يَقْبُحُ بالسلطان أن لا يكون عالماً، لأنه لا يخلو، إما أَن أَسكت أَو أُجيب، فإن سكتُّ فَيَعْلَمُ الناس أَني لا أَعلم، وإن لم أُجبْ بغير جواب مقنع علم الناس من جوابي أنني لا أفهم ما قلت، قال الأصمعي فعلَّمَني أكثر مما علمته)[28]. ويُحدّثُنا الأثر كذلك بأن هارون الرشيد رحمه الله بعث بابنه إلى الأصمعي ليعلِّمه العلم والأدب فرآه يوماً يتوضَأُ ويَغسِل رجليه وابن الخليفة يَصُبُّ الماء على رجليه، فعاتب هارون الرشيد الأصمعي في ذلك، وقال: إنما بعثته إليك لتعلِّمه وتؤدّبه، فلماذا لم تأْمُرْهُ بِأَن يَصبَّ الماء بيد ويغسل بالأُخرى رجليك»[29].

أَمَّا المعلِّم عبد اللّه بن المبارك فقد احتل مكانة خاصة في نفوس تلاميذه ومجالسيه لِعُلُوِّ منزلته في العلم والتقوى والورع؛ حيث أَشار ابن خلكان إِلى ما ورد في كتاب النصوص على مراتب أهل الخصوص، أن عبد اللّه بن المبارك لمَّا قدم مدينة الرقّة خفَّ النَّاس طواعية لاستقباله حتى قالت أُم ولدٍ لِهَارُون الرشيد «هذا، والله المُلْكُ لا مُلْكُ هارون، الذي لا يجمع الناس إلاَّ بشُرَطٍ وأَعوان»[30] ولِلَّه دَرُّ من قال:

قم للمعلم وَفِّهِ التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا

إنَّ منزلة المعلم عند هارون الرشيد عَلِيَّةٌ سامية، حيث كان الكسائي والأصمعي، وهما من مؤدِّبي أولاد الرشيد، يقيمان بمقامه ويصنعان بصنعه، وهي منزلةٌ يُحْسَدَانِ عليها وَوَجَاهةٌ نالاها بِالعلم[31].

---

(28) الأنباري عبد الرحمن بن محمّد، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، 1978، ص96.

(29) مخطوطة تعليم المتعلم، الخزانة العربية، بغداد، ص205.

(30) الحمولي، معجم الأدباء، ج3، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، ص183.

(31) ابن سحنون محمّد، أدب المعلمين، تحقيق حسن حسني، تونس، 1972.

أما عند خروج أسد بن فُرَات بن سنان إلى مرسى سوسة ليتوجه منه إلى صقلية سنه (204) هجرية، فقد خرج معه أهل العلم وعَامَّةُ الناس لِتَشْييعِهِ، وأمر زياد اللّه الأول أن لا يبقى أحد من رجال دولته إلاّ وشيعه، وعندما نظر أسد إلى الجموع من حوله صعد المركب وقال: «يا معشر المسلمين والله ما ولي لي أَبٌ ولا أحد ولاية قَط أو رأى أحد من سلفي مثل هذا، وما بَلغْتُ ما ترون إلاّ بالعلم والأقلام فأجهدوا أنفُسَكم فيها وثابروا على تدوين العلم تنالوا خير الدنيا والآخرة»[32]. ومن آداب المعاملة في حق العالم ما قاله الزرنوجي «إنه لمن توقِير المعلم ألاّ يُمْشَى أمامه، ولا يُجلس مكانه، ولا يُبتَدأ الكلام عنده إلاّ بإذنه ولا يُسْأَل عند ملالته ولا يدق الباب عليه حتى يخرج»[33].

ويقول مالك بن أنس «دخلت على الرشيد فقال لي: يا أبا عبد اللّه ينبغي أن تختلف إلينا حتى يَسْمَعَ صبياننا منك الموطأ، قال، قلت: أَعَزَّ الله مولانا إن هذا العلم منكم خرج فإن أنتم أعْزَزْتُمُوهُ عزَّ وإن أنتم أَذْلَلْتُمُوهُ ذلَّ، والعالم يُؤتى ولا يأتي، فقال الرشيد، صدقت، وقال للأمين والمأمون اخرجا إلى المسجد حتى تسمعا مع الناس[34]. وذات مرة قام المعلم العالم الكسائي لِيلْبَسَ نَعْليه فابتدرها الأمين والمأمون فَوَضَعَاهَا على يَدَيْه[35]. وأشرف هارون الرشيد يوماً على الكسائي وهو لا يراه، فقام الكسائي ليلبس نعليه فابتدرها الأمين والمأمون وكان مؤدِّبهما فَوَضَعَاهَا بين يديه فقبَّل رَأسيْهِما وأَيدِيهمَا ثم أقسم عليهما أن لا يعاودا. فلما جلس الرشيد قال: أيُّ الناس أكرم خدماً؟ قال أَمير المؤمنين أعزَّه الله. قال: بَلْ الكسائي يَخْدُمُهُ الأمين والمأمون، وَحَدَّثَهم الحدِيث[36].

من خصائص المعلم العالم في الإِسلام:

إن مكانة العالم المعلم في الإِسلام تُقدَّر بقدر اكتسابِه الخبرة وتنوّع

---

(32) الجاحظ، البيان والتبيين ص16.

(33) الغزالي ص35، م. س.

(34) الزرنوجي ـ الجواهر المضيئة (1، 2) دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ب. ت.

(35) مرسي أحمد سعد، تطور الفكر التربوي، ص185.

(36) الحمولي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، مصدر سابق، ص20.

مصادرها، ومستوى من تتلمذ عليهم وأَخذَ عنهم، وكذلك حرص العالم على صيانة العلم بِتَرفُّعِه عن الطمع، وعمله بعلمه، وأن يُصَدِّق قولُه فِعْلَهُ. فالعالم إذا لم يَعْمَل بعلمه زَالت موعظته عن القلوب.

ومِنْ أدب المعلم في الإسلام حسن الخلق، والتواضع، والرفعة والحِلْم، وعدم الكلام بغير هدف أو معنى. العالم لا ينازع مَنْ فَوقَه ولا يَظلم مَنْ دونَه، والمعلم في الإسلام يُوَسِّع على الطالب طريق التعلم، ولا يُقبِّح العلوم الأخرى التي لم يختص بها. ومن شروط أو مؤهلات المعلم التي لا بد من توافرها لدى من يرغب في ممارسة مهنة التعليم «أن يستكمل عدَّته ويشهد له بذلك أفاضل أساتذته وكبارُ علماء عصره، وأن يكون مهذَّباً متديناً متحلياً بالأخلاق النبيلة، حليماً وقوراً رفِيقاً بِطُلاَّبه متفرغاً لعلمه، ولا يشترط بِعِلْمِه الشريف عملاً آخر إلاَّ عند الحاجة وأن يستعين بالأمثلة والشواهد لإيضاح المسائل»[37].

إن حالة العلم والعلماء متلازمان، فالمعلم يشقى إلى أن يصل إلى حقائق العلوم من أجل أن يقدم ما ينفع الإنسانية، ومن ثم أعطت الحضارة الإسلامية مكانة سامية للمعلم مركِّزة على الأخذ بالأحسن، وتلك نزعة تقدمية في الإخلاص للحقائق التي عزّزها الإسلام بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[38].

إن المنهجية العلمية لدى معلمي وعلماء الدولة الإسلامية تتسم بالبحث والتمحيص والتأكد والابتعاد عن التقليد الأعمى والسطحية في فهم الموضوعات فقد أكد الإمام الغزالي في كتاب (إحياء علوم الدِّين) أن من واجب المعلم ألاَّ ينطق بما لا يعلمه، وأن لا يقلّد أباه بضلاله مستنداً في ذلك إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[39] ومن هنا يتبنّى العلماء العرب مبدأ الشك بقصد الوصول إلى اليقين. إن مبادىء البحث والاستقصاء والتمحيص تُشكِّل صُلْبَ الأسلوب العلمي الذي

---

(37) شمس الدين، الفكر التربوي عند ابن سحنون، ص46.

(38) سورة الزمر، الآية: 18.

(39) سورة الإسراء، الآية: 36.

يستند إلى استخدام العقل في إصدار الأحكام واتّخاذ المواقف واستخدام الذكاء، وقد أعطى الإسلام قِيمَةً جَلِيلة للعقل حيث مَيَّزَ بِهِ الله سبحانه الإنسان عن سائر المخلوقات الأخرى، وفي الحديث القدسي إنه (الإنسان العاقل) خَلْقٌ عظيم كَرَّمَه الله على سائر خلقه وَمَا خلق الله خلْقاً هو أحبّ من العقل إليه. . . وما قسَّم للعباد شيئاً أفضل منه وما عُبِدَ بشيْء أفضل منه، وهو مع العلم لا نِعْمة أفضل منه. به تسْتَخْرَجُ غور الحكمة وتُنَالُ ذِروةُ العلوم.

وقد جاء في الأثر أن الله جعل للعقل أكثر من خمسةٍ وسبعين جنداً منها: مكارم الأخلاق، والخيْر والإيمان، والتّصْديق والرجاء، والعدل، والرضا، والشكر، والطمع في رحمة الله، والتوكل والرأفة والرحمة، والعلم والفهْمُ والعفَّةُ، والزهد والرفق والرهْبةُ، والتواضع والتؤدة والحلم، والصمت والاستسلام والتسليم، والصبر والصفح، والغنى، والتفكُّر، والحفظ، والتعطُّف، والقنوع، والمؤاساة والمودة والوفاء، والطاعة والخضوع، والسَّلامة، والحب، والصدق، والحق، والأمانة والإخلاص، والشهامة، والمعرفة، والمداراة، وسلامة الغيب، والكتمان، والصلاة، والصوم، والجهاد، والحج، وصون الحديث وبر الوالدين، والحقيقة، والستر، والتّقية والإنصات، والتهيئة والنظافة، والحياء، والقصد، والراحة، والسهولة والبركة، والعافية، والقوام، والحكمة، والسعادة والتوبة، والاستغفار والمحافظة والدُّعاء، والنَّشاط والفرح والأُلفة والسخاء[40].

هذا ولقد جعل الله ضد الخير الشر، وضد الطمع اليأس، وضد الاستسلام الاستكبار، وضد التسليم الشك، وضد الخُضُوع التفاؤل، وضِد الستر التَّبرج، وضِد التهيئة البغي، وضِد القصد العدوان، وضد القِوام المكاثرة، وضِد المحافظة التهاون، وضد الدُّعاء الاستنكاف، علماً بأن أول الأثرة وقوتها ومبدأها العقل الذي جَعَلهُ الله زِينةً لخلقه ونُوراً لهم، ولا غِنَاءَ أخصب منه ولذلك فإنه سمة أولية يتسم بها العالم والمعلم، فَبِنِعْمَتِهِ يكون رصيناً دقيقاً أميناً في إيصال المعرفة إلى الأجيال.

---

(40) أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، نهج البلاغة، م. س.

كان المعلم في الدولة الإسلامية باحثاً منقّباً عن المعرفة الحقة، يَشدُّ لها الرحال إذا اقتضاه الأمر. وكان لا يجيب بِغَيْرِ علم، ويجيب بلا أدري، والله أعلم، بدلاً من إعطاء معلومات خاطئة، وذلك استناداً إلى قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾[41] وذلك ما أجاب به الملائكة المقرَّبون. وسُئِل الرسول ﷺ عن أي البقاع خير، وأي البقاع شر، فأجاب بلا أدري»[42] وهو الذي شُهِدَ له بالذكاء والفطنة، وكُلِّفَ بِتبليغ رسالة السماء. وما إجابته إلاَّ تأكيداً على دقة الإجابة العلمية، ورُوِيَ عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ بأنَّه قال: إن من العلم أن تقول لما لا تَعْلم «الله أعلَم» وَإِنَّ رسول الله ﷺ وصَحْبَه الكرام، وهم علماء الأمّة، وقادتها ومعلّموها كانوا يحتاطون في الإجابة عن الأسئلة والمسائل، وكانت تَتَملَّكُهُمْ الدِّقة، وقد يُثْنِيهِمُ الحذر أحياناً عن الإجابة غَيْر المؤكَّدة في عقولهم، والجواب بلا أدري، أَو اللَّهُ أعلم، لا يَعْنِي كتْمَان العلم، ولا يَنْسبُ لِصَاحِبِهِ الجهالة؛ لأن الكمال لِلَّهِ وحده، بل يُضْفي على صاحبه وقارَ الصِّدق، وإجلال الحقيقة، فقد روى الشعْبيُّ عن علي بن أَبي طالب ـ رضي الله عنه ـ أنَّه قال: «ما أَبردها على الكبد. فقيل له وما ذلك؟ قال: أن تقول لما لا تعلم اللَّهُ أعلم»[43].

(41) سورة البقرة، الآية: 32.

(42) القرطبي، جامع بيان العلم، ص62.

(43) القرطبي، مصدر سابق، ص67.